اوراق متناثرة من ديوان

الادب العالمي

كامل محمود حبيب

— ١ —

لينين والرواية

أفكان لينين يعشق الرواية ويقرؤها ويكبُّ عليها وهو الرجل الصلب الجاف الذي عاش عمرهُ تضطرب في نفسه فكرة واحدة سيطرت عليه فسلبتهُ من كل فكرة اخرى ، تلك هي الرسالة التي أخذ على عاتقه ان يقوم بها ويوفر عليها جهوده ؟ أفكان يجد في نفسه هوًى للرواية ونحن نرى فيها سلاة وملهاة تملأ الفراغ وتقطع الوقت ، وهو . . . هو لينين رجل العمل والجد ؟

نعم ، لقد قرأ لينين الرواية واغرم بها ، رواية واحدة كان يجد فيها الاستاذ والعلم والمرشد، والقراس الذي يهتدي بهديه ويستلهم منهُ الفكرة ، تلك هي « طيب القرية » لبلزاك . ولكن اي فكرة سامية في هذه الرواية فتجذب اليها لينين فيقرؤها ويقرؤها فقط ؟ إن طيب القرية (بياسيس) الذي صوّره بلزاك بقلمه الرائع واسلوبه الجذّاب رجل عاش في الريف في منأى عن كل ما يشغل الناس وينفث فيهم روح التناحر الدائم . . . عاش هناك ، على بضعة أميال من جرينوبل ، ليضرب للناس مثلاً عالياً في الدكتاتورية الصالحة التي تنهض بها — اول ما تنهض — الامم

اخذ الطبيب بياسيس نفسه بأن يبذر في نفوس الناس الذي عاش بينهم ما يبذر المعلم الامين في نفوس تلاميذه الصغار من غراس الخلق الطيب والعلم الصحيح . فراح يطهر الناحية من أدران الجهل والتكسب والفقر ، وهب يرفع من اسباب العيش ومستوى الحياة فأحسَّ الناس بالحاجة الى اشياء ، وهو يقول « إن الذين لا يستشعرون الحاجة هم الفقراء حقًّا » . وألحت الحاجة على صحابته فاندفعوا يستبدلون مع الاجانب متاعاً بمتاع . وحين بدا هو في اعينهم نشيطاً دؤوباً مقداماً مصلحاً تهافتوا اليه يولونهُ ثقتهم ومحبتهم فأخرج منهم ناساً فيهم الدأب والرقهية

وجاء جينتاس ، وهو رجل حرب ، ليرى الطيب ، فنزل ضيفاً مكرماً في داره ، وراح

الطبيب يكشف له عن بعض ما كان منهُ ويبسط امامه خواطره وآراءه و ... وآماله ...

وعلى حين فجأة مات الطبيب

والقارىء يرى في الطبيب رجلاً باوزاً لا يشبهه الصل ولا يقعد به الجهد ، لا يهدأ ولا يستقر تدفعهُ العاطفة والعقل معاً الى الغاية التي يبتغي . أفلم يكن لينين من هذا الطراز ؟ أفلم تحل فيه روح الطبيب فتشيع في نفسه بادئه حين يقول « ان الذي يعيش عاطلاً هو لصٌ اجتماعي » وحين يقول « لا بدَّ ان يعيش الرجل بين الناس زاهداً » أو حين يقول « ان الذي يدرك معنى الحكم ، ويجد في نفسه القوة على حمل اعبائه ، يجب عليه حين يمسك بالدفة ان يديرها في حزم وصمت » ؟

وروعة الكتاب تبدو في مواضع كثيرة اوضح فيها ان المادة هي شغل الناس الشاغل . ولقد اراد الطبيب ان يهب نفسه لما فيه صلاح القوم فاضطربت في رأسه فكرتان : ايعيش بين الناس طبيباً يداوي علتهم ويحنو عليهم ام هو يسعى جهده ليقر بينهم السلام والهدوء ؟ وتنازعهُ عاملان : أفيكون طبيباً او نفسًا ؟ وخيَّل اليه ان الانسان يصغي في رضا لمن يخفف عنهُ آلامه اكثر مما يطمئن الى من يميتهم ويخوفهم ، فراح يسير على مرضاه ، واستقر الى جانب الفلاح الذي يكدح عمره لينال قوت يومه . ولكن الانسانية الخامدة لا ترقى الاَّ على سلم من الاعتداد بالذات ، فهذا العظيم الذي يقذف بنفسه في خضم الجهاد ، هو لا ريب يسعى لينفث روح الاعتداد بالنفس في نفوس الشعب لينشىء خلقاً جديداً غير ان الجيل الجديد سيكون ولا شك ماديًّا

ولعلَّ لينين نفسه شعر بما شعر به الطبيب فاندفع ينهج نهجهُ

ثم تجيء الفكرة الدينية تطن — دائماً — عن نفسها ولقد قال الطبيب : « إن الكاثوليكية كتلة من التعصب والخرافة تآلفت في إتقان ودقة ، يستطيع العقل الخصيف ان يمتد اليها بالتطهير والاصلاح » ولكنهُ حين اغتر في عمله بين الفلاحين رأى انها « هي القوة الوحيدة التي تضم في اضانها كل البادىء الاجتماعية السامية وتسبغ عليها من روح الحياة والوحدة السياسية » وان الدين « لم يكن — في يوم ما — سلوة يستتر بها المرء بل هو اداة صالحة تقود الجماعات — دائماً — الى النجاح » . وحين أخذ لينين بهذا المذهب اصبح هو في روسيا الرجل المحترم المقدَّس ، وغدا عماد القانون الارضي وحارسه

ولقد اخذت كل من روسيا والمانيا وايطاليا بالمبدإ الذي رسمهُ طبيب بلزاك « . . . إن اخلاط الناس هم سفلة القوم الذين يسهرون على حماية الامة . . . واذا هبَّ رجل عظيم يريد الاصلاح فلا بدَّ ان يعتمد على الحكومة والاَّ القى بالناس في غمار الثورة . . . ان مجالس الشورى والبرلمانات والديموقراطية كل اولئك خور وضعف وضياع للوقت دون ثمرة تجتنى . . . ياعجباً ،

يا عجباً! كيف يجلس قوم يتنازعون بينهم الرأي، والخطر على خطوات منهم يحدجهم بنظرات يتطاير منها الشرر فلا يستطيعون دفعه! لا بد ان تكون السلطة والقانون و . . . اشياء تقبض عليها يد واحدة . . . يد واحدة فقط »

واخيراً ننشر امام اعيننا رسم الدكتاتور الصالح الذي نادى به بلزاك قائداً وحاكماً، والذي سار على ضوئه لينين ومن بعده الزعماء ذوو الحزم والعزم مثل هتلر وموسوليني وستالين . . . :

«أن يكون بعيد النظر ثاقب الفكر، لا يطيش ولا يذهب بلبه الغرور والخداع، وأن ينزع عن نفسه شهواتها وأطماعها ليسيطر على مواهبه في نزاهة وعدل، في عزم وقوة، وان ينفذ أوامره في صرامة وشدة فلا يضطرب ولا يختلج ولا يرحم ولا يصغي الا لنداء ضميره هو، وأن يستلب عن نفسه الشك والثقة العمياء فلا يطمئن الى رفاقه واعوانه دون تجربة، وألاّ يكون سهلاً ليناً ولا صلباً جامداً، وان يكون على اهبة فلا تدهمه الحادثة فيضطرب لها ويفزع ويتزلزل زلزالاً شديداً، ثم هو يجب عليه ان يجول بين الناس يشع عليهم من عبقريته وينفذ الى قلوبهم من خلال أحاديثه الرقيقة وأظرافه الفاذة، وألاّ تشغله الصغائر بل هو يعنى دائماً بالنتائج . . . ذلك هو الرجل الذي يرقى درجة فوق الانسانية »

تلك هي المبادىء التي بذر بلزاك غراسها في عقل لينين فتأثر بها وشغفته حبًّا . . .

— ٢ —

اللحن الضائع لسافو

في الاربعين السنة الاخيرة انحسرت رمال الصحراء المصرية عن ألحان من الشعر الاغريقي فيها الروعة والجمال، طوّحت بها المسيحية الى أعماق النسيان والاهمال حين راحت تحط من قيمة الأدب الوثني في اعين الناس، فكشف كل من جرينفل وهنت عن مقطوعات من شعر سافو، وعثر العالم الايطالي بيديانورسا على اربع قطع ونصف من الشعر كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد على قطع من الفخار، عرف هو — عند ما قابل بينها وبين الحان أخر — انها لسافو. وهي قطع من رائع الشعر تصف حفلاً حشد في اقليم كأنه الفردوس فيه الماء والزهر والاشجار وفي اضعافها دعوة الى أفروديت معاصرة سافو لتحضر الحفل مكللة بالغار وفي يدها كأس ذهبية فيها الرحيق

والاسطر الاربعة الاولى مضطربة غير ان القارىء المدقق يستطيع ان يستشف من وراءها

امرين : الاول ، انها تصف ناراً تتألق في السماء علامة يستبشرون بها كلما همّ الناس بعمل ذي خطر ولعل العمل هو حفل زفاف والنار هي علامة رضا الآلهة ، فالظاهر كانوا يعتقدون ان النار والبرق والرعد سمات البشرى ترسلها الآلهة الى الناس . والثاني ، ان سافو تطن عن نفسها امام الزمر في كريت . ولكن كيف ذهبت سافو الى كريت ومتى ؟ إن التاريخ يقول انها نفيت من وطنها وهي طفلة الى سليسيا ولعلها لبثت في هذه الجزيرة عمراً من عمرها في ذهابها او في إيابها ! ومهما يكن في الامر من شيء فهي التي تقول « على انغم الموسيقا وحول المذبح المقدس اندفع فتيات كريت يرقصن في ارجل لدنة وبطأن الازهار الجميلة اليانعة في خفة . . . » وفي هذا اللحن نجد سافو تذكر حفل كريت في حنين وشوق

واذا اغفلنا الاسطر القليلة المضطربة استطعنا ان نترجم ما بقي من اللحن « . . . ما اجمل اشجار التفاح المتشابكة والبخور يتصاعد سحباً عطرية من المعبد ، والماء البارد يتدفق في صخب بين الشعاب ، والظلال تنشر ثوبها الرقيق على المكان كله ، وحفيف الاشجار يبعث كانه صوت الناس المقدس ، والخيل ترعى في الرياض المزهرة ومن فوقها أكمام زهر اللوطس ، والنسيم يهب رقيقاً ينفح ريحه العطر الشذي . . . تعال الآن ، ايها القبرصي .. تعال لتأخذ زهرتك ، ولتصب في رقيق رحيقك الشهي في الكأس الذهبية ، ثم أنقت فيها اللذة والسعادة ! »

وهذه اغنية رددت — ولا ريب — يوم زفاف سافو نفسها . والاستاذ ميديا يقول انها اغنية خاصة لم ترفع بها الاصوات لدى المعبد بل كانت تترنم بها هي ورفيقاتها . وحجته في ذلك ان اغاني العرس كثيرة وعديدة ، وومضات البرق تميد الى النفس ذكرى ايولون وهو يسلم هيرا الشاعل لتحملها في عرس فيلا وتهنئ أبوي « أخيل » اوهي تذكر الناس بالنار التي شبت من جانب السماء حين ربط بين زيدو وإيفوس بالرباط الوثيق في الكهف . ولعل حديقة التفاح المقدسة هي حديقة افروديت فهي كانت تقدس التفاح لانه عندها علامة انتهاء عهد العزوبة وابتداء عهد الزواج . ثم هي ذكرت سحب البخور وهي تتصعد في سماء المحراب علامة نجاح الحفل . ولقد خاطبت سافو الكريتيين لانهم رفاق زوجها فهي لم تنادِ واحداً منهم بل كانت تنادي زوجها وحده

وانه ليستوقف النظر ان نرى سافو تدعو أفروديت الى المرجان وعلى رأسها النار وفي يدها الكأس الذهبية مترعة بالرحيق لتقدمها هي الى الزوج فيتقبلها وعلى شفتيه ابتسامة علامة الرضا والترحيب بحياته الجديدة ، فلقد كان يخيل الى سافو ان الآلهة يحفون من حولها وانها تتحدث اليهم ؛ فهي تدعو افروديت ربّة الزهر لتقوم لها بما يقوم به هيرس في اعراس الاولمب، او لعلها كانت تناجي زهرة من بين الازهار العديدة التي نثرتها في ارجاء المكان كأنها هي ربة الزهر

وحوّى لحن عرس سافو تدوية شديدة ، في عالم الآثار ، فما هو كثيره من الالحان الاخرى لانها كشفت لنا عن بعض ما يضطرب في نفس المرأة في ليلة العرس من نوازع فيها اللذة والطرب ، وفيها السحر والسعادة ، ثم هي استطاعت بعد ذلك ان تتغلغل في النفوس بعبارات فيها السهولة واللين ، وفيها الطيان والروعة ، ثم هي تعيد العبارة مرات ومرات فما يمجها الذوق ولا تمافها الاذن لانها تتفنن فيها في كل مرة من روحها الجذابة ونغمها الساحر وعاطفتها المتسعرة

والآن فيا مصر ، انيقضي علينا بما تكتبين عنا الحاناً أخر فيها السحر والجاذبية والجمال فلطالما لجت بك الضنة

— ٣ —

مؤتمر ورق البردي

في اواخر اغسطس الماضي عقد المؤتمر الخامس لعلم البردي وحضره اكثر من ستين وماثة عالم من انحاء اوربا واميركا . وغريب ان تجتمع لورق البردي المؤتمرات فيخف اليها العلماء من كل صوب ! وماذا في ورق البردي حتى يعنى به العالم ويوليه من عنايته وهمته ووقته ؟

لقد كان لورق البردي المكان المرموق عند قدماء المصريين والاغريق والرومان فهم قد كتبوا عليه كتبهم ودونوا وثائقهم العامة والخاصة ، والبردي ورق مصنوع من نبات مائي كان الى حين يثبت على ضفات النيل ، وهو سريع البلى غير ان جو مصر الجميل وتربتها الجافة ساعدا على ان يجتاز هذا الورق القرون الطويلة وهو في جدته وبهائه لم تنبث به الايام

وكان تاريخ الادب يبتدىء من القرن الرابع الميلادي ، فجاء البردي يفتح امامنا صفحة اخرى يمتد تاريخها الى ما قبل ذلك بقرون

وكشف عن ورق البردي — اول ما كشف عنهُ — في سنة ١٧٧٨ حين عثر جماعة من اهالي مدينة الفيوم على حزمة منهُ في اناء خزفي فاشترى احد الهواة بعضها بالثمن البخس ، واحرق القوم ما بقي حين لم يجدوا فيه فائدة ترتجى . واستطاع كاردينال بورجيا ان يحصل على هذه الاوراق فطبعها في سنة ١٧٨٨ فاذا فيها اسماء العمال الذين قاموا بأعمال الري سنة ١٩ بعد الميلاد

وفي اتسعين السنة التالية لم يعثر الا على وريقات لا تشفي غلة بل بعض قطع من ادب هوميروس وهيرديس تيرتب ديموستيس والكتان

وفي سنة ١٨٧٧ اكتشف اكبر قدر من هذا الورق وهو قرابة الف وثيقة تجمع بين

اسطرها ماكان من امر مدينة ارسينو ، وهذه المجموعة حفظها الارشيدوق رايز النمسوي

وجاءت سنة ١٨٩١ تحمل في اضافها حزماً من ورق البردي فيها الادب وفيها العلم فطبعت دار الآثار الانجليزية بعضها وهي: رسالة ارسطو المفقودة في تاريخ اثينا ، والاشعار لهيرودس وبعض خطب هيبريدس ، ورسالة مستفيضة في الطب ، ثم بعض ما كتب هوميروس وديموستنيس واسوكراتيس ، وفي ذلك الحين كشف عن وثائق فيها شذرات لهوميروس وافلاطون ثم المأساة المفقودة ليوريبيدس

فابتدأ حب الاستطلاع يدفع الباحثين الى دراسة ما يزجيه الينا البردي من الادب والتاريخ ، فتوزعتهُ الايدي بين برلين ولندن وفينا وجنيف ، وتناولتهُ العقول بالبحث في نواحيه العديدة ...

***

ومنذ اربعين سنة تدفق سيل من اوراق البردي فأفعم مكتبات اوربا ومصر واميركا بمئات من القطع الادبية وآلاف من غير الادبية ، ذلك عدا بعض كتب في اللغة المصرية القديمة ونسخة اغريقية من الكتاب المقدس تسبق كل ما بين ايدينا من هذا الكتاب بمئتي سنة

ولقد افادنا البردي من الناحية الادبية فائدة عظمى ، فهو قد كشف لنا عن بعض ما كتب عظماء الفلاسفة والكتّاب والشعراء مثل : ارسطو وهيبريدس وهيرودس وميناندر وتيموثيس ، وقطع لسافو وبندار ومأساة سوفكليس ، ثم هو قد نشر على اعيننا كل ما نعرف الآن عن الادب والعلم عند قدماء المصريين ، والتي بين ايدينا بعض المخطوطات القبطية التي اوضحت لنا عن الفكرة الدينية الصحيحة ...

وجاءت الوثائق غير الادبية تهدينا الى المنهل العذب الصافي الذي تغترف منهُ كل ما تصبو اليه النفس من الحقائق عن تاريخ حكم البطالسة والرومان والبزنطيين والعرب في مصر ، ثم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في مدى الف سنة

***

والباحث في القانون يجد مئات من الوثائق تجمع في ثناياها المواد القانونية والمحاكمات العامة من عهد المصريين القدماء حتى العهد البزنطي ، واخرى تشمل خطابات خاصة تلقي على الحياة في عصور المدينة السحيقة

اقليس في كل هذا ما يبعث على ان تجتمع المؤتمرات وان تشاد المعاهد العلمية لدراسة ماجاء في اضاف ورق البردي من ادب وتاريخ وعلم ؟